

إسرائيل وسوريا وطلاولة أوباما المستديرة

محاضرة ألقاها المسؤول السابق في مجلس الأمن القومي الأمريكي
"مايك دوران" بتاريخ 28 شباط/فبراير في مركز بيجين - سادات للدراسات
الاستراتيجية

تلخيص ومراجعة: عبد الرحمن السراج

باحث في التاريخ السياسي والعلاقات الدولية في الشرق الأوسط، مهتم بالشأن الأمريكي، ومدير
تحرير موقع ترك برس

مركز إدارك للدراسات والاستشارات

05 آذار/مارس 2016

إِدْرَاك

FOR STUDIES & CONSULTATIONS ♦ للدراسات والاستشارات

إن أهم حدث حصل مؤخراً في منطقة الشرق الأوسط هو التحالف الروسي الإيراني في سوريا، والذي يسعى إلى الانتصار في صراع الهيمنة على المنطقة، مستخدماً نفس ذهنية الصراع الموروثة عن الحرب الباردة. وفي المقابل، لا تُخفي إسرائيل خشيتها من هيمنة إيران على سوريا، ووصول الحرس الثوري إلى الحدود السورية الإسرائيلية، الأمر الذي يعتقد المسؤول السابق في مجلس الأمن القومي الأمريكي "مايك دوران" أنه حاصل لا محالة في ظل غياب سياسة أمريكية تقوي الحلفاء القدامى ضد الأعداء القدامى.

كيف وصلت الأمور إلى هنا؟ سؤال يجيب عليه دوران من خلال تشخيص التحول في السياسة الأمريكية في محاضرة بمركز بيجين سادات للدراسات الاستراتيجية في تل أبيب

DRAKS
FOR STUDIES & CONSULTATIONS • للدراسات والاستشارات

"الوضع في منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط معتدل، أي أنه أسوأ ممّا كان عليه في الأمس، لكنّه بالتأكيد أفضل مما سيكون عليه غدًا"، بهذه العبارة ابتدأ الزميل الأقدم في معهد هادسون "مايك دوران" محاضرتَه حول السياسة الأمريكية في شرقي المتوسط، في "مركز بيغين سادات للدراسات الاستراتيجية" التابع لجامعة بار إيلان في تل أبيب.

يسعى مركز بيغين سادات للدراسات الاستراتيجية إلى "تقديم أجندة صهيونية محافظة واقعية بحثًا عن السلام والأمن لإسرائيل" حسب موقعه الإلكتروني. وقد قدّم "دوران"، المدير الرئيسي السابق لبرنامج شؤون الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في مجلس الأمن القومي في الولايات المتحدة تشخيصًا للنظرة الإسرائيلية تجاه الصراع في سوريا، في محاضرتَه التي طرح فيها قراءته للتحوّل في السياسة الأمريكية تجاه شرقي المتوسط والشرق الأوسط بشكل عام منذ تولي أوباما الرئاسة.

تتلخص الصورة التي رسمها دوران للوضع الحالي في كاريكاتير نشرته صحيفة هآرتس الإسرائيلية يظهر فيه جون كيري بابتسامة عريضة يحمل في يده ورقة تقول "وقف الأعمال العدائية في سوريا" وفي يده الأخرى يشير بإشارة السلام، وخلفه الروس وقوات الأسد يقصفون المدنيين في سوريا والسعوديون والأتراك يدعمون المعارضة. حرب وفوضى والأمريكان يقولون "وقف الأعمال العدائية".

"أكبر الأحداث التي شهدتها المنطقة في الفترة الأخيرة وأهمّها هي التحالف الروسي الإيراني في سوريا، فهو يغيّر توازن القوى في الشرق الأوسط ككل". ليست المعركة الدائرة في سوريا في جوهرها حربًا من أجل سوريا ولا هي كذلك حربٌ بين السنة والشيعة وفق دوران، فما يجري هو معركة للهيمنة على المنطقة وصراع بين منظومة التحالف الإيراني ضد مناوئي إيران غير الموحّدين. لو عدنا بالزمن إلى الوراء ربما كان يمكن القول إن الصراع الدائر بين منظومة التحالف الإيراني ومنظومة التحالف الأمريكي، لكن الإدارة الأمريكية لا تبدو الآن مقتنعة بأنها تقود تحالفًا للدفاع ضد التحالف الإيراني. يشرح دوران ذلك في مقاربة تاريخية، لكنه يضع في البداية الخطوط العريضة لفرضيته انطلاقًا من إسرائيل.

DRAK

لدراسات والاستشارات • FOR STUDIES & CONSULTATIONS

القراءة الإسرائيلية لسوريا

يشخص دوران أمام الجمهور الإسرائيلي القراءة الإسرائيلية لسوريا، بدءًا بالخطوط الحمر الثلاث التي لن تسمح إسرائيل بتجاوزها وهي: نقل الأسلحة عبر سوريا إلى لبنان، وأن تكون سوريا قاعدة للحرس الثوري الإيراني على الحدود الإسرائيلية، وأن تكون سوريا قاعدة لانطلاق هجمات الإرهابيين تجاه إسرائيل. وقد لخصت الحكومة الإسرائيلية رؤيتها مؤخرًا حسب دوران بعبارة "إننا لن نتسامح مع الهيمنة الإيرانية على سوريا".

وجود محتم للحرس الثوري على حدود إسرائيل

"سيترك أوباما مع انتهاء فترة رئاسته سوريا تهيمن عليها إيران وروسيا، ما يعني أن الحرس الثوري الإيراني سيكون على حدود إسرائيل"، يقول دوران إن فرضيته هذه لم تلقَ رواجًا لدى المسؤولين الأمريكيين والإسرائيليين، لكنه يؤكد اعتقاده بأنه في ظل غياب سياسة أمريكية لدعم الحلفاء السابقين لها في مواجهة أعدائها السابقين فإن إسرائيل لا تملك أي خيارات جيدة لضمان عدم سيطرة الإيرانيين على سوريا. يرفض المسؤولون في الولايات المتحدة وإسرائيل هذه الفرضية بدعوى أن هناك اختلافًا وتوترًا كبيرين بين الإيرانيين والروس، فقد تعرض الإيرانيون لتشويش مع دخول روسيا التي حلت مكانهم في سوريا.

يوافق دوران على ذلك، فهم تاريخيًا ليسوا حلفاء طبيعيين وليست مصالحهم في سوريا متطابقة بنسبة 100 بالمئة ولا شك في وجود خلاف بينهما، لكنه يرى أنهما يشتركان في مصلحة حيوية مهمة جدًا تدفعه إلى وصف علاقتهما في سوريا بالتحالف وليس الزواج التكتيكي، وهذه المصلحة هي الحفاظ على نظام الأسد، "وأعني الحفاظ على النظام الذي يسيطر عليه العلويون في سوريا".

إذا نظرنا إلى كيفية عمل هذا التحالف على الأرض، يملك الروس قوات خاصة لكن قوتهم الضاربة هي سلاح الجو، وقوات المشاة على الأرض هي إيرانية أو بقيادة إيرانية، حزب الله وميليشيا شيعية مسلحة ومدربة وتتحرك بتعليمات إيرانية. الروس في الجو والإيرانيون على الأرض وكلاهما يدعمان نظام الأسد، وهما عالقان مع بعضهما مهما وصل الخلاف بينهما، يشبههما دوران بالتوأمين السياميين الذين يكره أحدهما الآخر ويدركان أنهما إذا حاولا الانفصال سيموتان.

لن تستمر هذه الحالة لوقت طويل لذلك يمكن تسميتها بالتحالف ولكن محاولة فصلهما، حسب دوران، دون تحرك عسكري أمريكي أو بقيادة أمريكية مع تنسيق مع أطراف أخرى لن تؤدي إلى خلق توتر كافٍ بينهما ذي قيمة استراتيجية، مؤكدًا أن "حقيقة وجود معلومات استخباراتية، رأيتها أنا وآخرون، عن وجود خلاف بينهما هي حقيقة ليست مهمة استراتيجيًا".

التحول في السياسة الأمريكية

كيف وصلت الولايات المتحدة إلى درجة ترى فيها التحالف الإيراني الروسي يتحرك باتجاه تقوية إيران في شرقي المتوسط والشرق الأوسط بشكل عام دون أن يدفعها ذلك للتحرك؟ يعزو ذلك دوران إلى سببين يقودان إلى كاريكاتور هآرتس. الأول، وهو أهم بُعد للتفكير التكتيكي للرئيس أوباما، وهو أنه لا يؤمن باستخدام الردع العسكري التقليدي، ويُرد ذلك إلى تحليله لأخطاء إدارة الرئيس جورج دبليو بوش في العراق، فهو يرى في استخدام الردع العسكري التقليدي منحدرًا زلًا نحو الحرب، ويود أن

يتجنب حربًا أخرى. ولذلك رسم نوعًا من الخط الأحمر لنفسه ليس بعدم الذهاب إلى الحرب ولكن بعدم التهديد حتى بالذهاب إلى الحرب. لذلك إذا نظرنا إلى العواقب التي فرضها على سلوك بوتين في أوكرانيا - لم يفرض أوباما أي تكاليف على سلوك بوتين في سوريا - فهو دائمًا ما يتوقف عند الردع العسكري أو تسليح المعارضة. ولذلك لن يتحرك خطوة في سوريا من شأنها أن تُحمّل الروس تكلفة عسكرية.

أما السبب الثاني فهو على المستوى الاستراتيجي. يملك الرئيس رؤية جديدة للشرق الأوسط، تحدث الكثير عن ذلك ولكن دوران يلخصها في نموذجي الطاولة المستديرة و الطاولة المستديرة.

- الطاولة المستديرة

نظر الرؤساء السابقون إلى الشرق الأوسط على أنه طاولة مستديرة على أحد جوانبها حلفاء الولايات المتحدة السعوديون والإماراتيون والأردنيون والإسرائيليون والمصريون والأتراك وغيرهم. هناك خلافات بين الأطراف على هذا الجانب، فمن الواضح مثلًا أن السعوديين والإسرائيليين ليسوا حلفاء طبيعيين والأتراك والإسرائيليون ليسوا متفقين كذلك. يكمن دور الولايات المتحدة في تخفيف الخلافات بين الأطراف الموجودين على جانبها من الطاولة المستديرة وتنشيطهم في مواجهة الأطراف على الجانب الآخر منها وهم السوفييت ثم الروس والإيرانيون الذين هم أيضًا ليسوا حلفاء طبيعيين وهناك خلافات بينهم، لكن مهمة الولايات المتحدة كانت تقوية طرفها في مواجهة الطرف الآخر.

الشرق الأوسط منطقة معقدة تتضمن صراعات تتوجب إدارتها بدلًا من حلها حسب دوران، لذلك لم يكن الوضع دائمًا ببساطة "نحن" في مواجهة "هم"، لكن عقلية نحن ضد هم كانت الغطاء الاستراتيجي الذي وضعه الأمريكان على المنطقة. كان ذلك موروثةً عن الحرب الباردة حين كانت الأمور أبسط، فقد ضمت التصريحات الأمريكية من ستينيات وسبعينيات وثمانينيات القرن الماضي دائمًا حديثًا عن العرب المعتدلين الذين كانوا متحالفين مع الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفييتي، والعرب المتطرفين الذين كانوا متحالفين مع الاتحاد السوفييتي ضدها.

استمر نموذج الطاولة المستديرة بعد الثورة الإيرانية، حيث كانت تبدو إيران على الجانب الآخر من الطاولة، وكانت مهمة الولايات المتحدة تنظيم معارضة إيران وفرض عواقب عليها لا تتضمن بالضرورة إعلان حرب أو اتخاذ إجراء متطرف، ولكن فرض تكلفٍ على الإيرانيين بسبب سلوكهم الذي كانت الولايات المتحدة ترى فيه تهديدًا لمصالحها أو مصالح حلفائها.

- الطاولة المستديرة

انتهى كل ذلك مع الرئيس أوباما الذي يملك نموذجًا آخر في ذهنه وهو الطاولة المستديرة، التي يجلس حولها كل الفاعلين الكبار في الشرق الأوسط ومهمة الولايات المتحدة هي إدارة النقاش. تضع الولايات المتحدة الملفات على الطاولة، هناك الملف الإيراني النووي والملف السوري والملف الفلسطيني الإسرائيلي وغير ذلك من الملفات. وحسب تصريحات البيت الأبيض فإن مهمة الولايات المتحدة جمع أصحاب المصلحة الذين لهم موقف أو تأثير تجاه المسائل العالقة ومحاولة إيجاد اتفاق مفيد بينهم.

هناك عدد من الفرضيات التي تدعم نموذج الطاولة المستديرة، يذكر دوران اثنين منها. الأولى هي أن ما يجمع الولايات المتحدة مع أصحاب المصلحة حول المسائل المهمة بالنسبة لها أكثر مما يفرقها معهم. فما يجمعها مع الإيرانيين والروس مثلًا هو مصلحة تدمير داعش وجلب الاستقرار إلى العراق.

أما الفرضية الثانية فهي أن نموذج الطاولة المستديرة السابق هو الذي كان يخلق الأعداء على الجانب الآخر من الطاولة، فإذا تواصلت الولايات المتحدة مع الإيرانيين والروس وأكدت لهم أنها تريد جمع الأطراف على هذه الطاولة المستديرة فسيأتون إليها.

انقلاب أدوار تاريخي بين الروس والأمريكان

يعتقد دوران أن الخطأ في تشخيص إدارة أوباما هو أن الروس والإيرانيين لا زالوا يعملون وفق نموذج الطاولة المستديرة الخاص بهم، ولديهم رؤية واضحة عن "نحن" ضد "هم". يقول الرئيس أوباما "لست في صراع مع الرئيس بوتين" و"ما يجري ليس استمرارًا للحرب الباردة"، في الحقيقة الرئيس بوتين سعيد بالموافقة على ذلك ولافروف سعيد كذلك بحضور آلاف الاجتماعات في فيينا، من يرفض الذهاب إلى فينا الرائعة لحضور اجتماع طالما كانت هذه الاجتماعات ليس لها أي تأثير على ما يجري على الأرض في سوريا؟ لذلك سيواصل الروس اللعب وفق مفهوم الطاولة المستديرة إلى الأبد، ولكن في عقلهم الباطن لا زالت هناك الطاولة المستديرة. "وعلى الطرف المقابل من الطاولة المستديرة نحن، هم يفهموننا بشكل جيد جدًا".

ما يجري هو قلب مُسلٍّ لما كان يحدث سابقًا حسب وصف دوران. "يذكر عدد منكم في سبعينيات القرن الماضي عندما بدأ هنري كيسنجر عملية جنيف الكبيرة لحل الصراع العربي الإسرائيلي التي اشتركت في إدارتها الولايات المتحدة وروسيا لجمع الأطراف تحت مظلة جنيف. لم يكن كيسنجر يؤمن للحظة بوجههم أن الولايات المتحدة ستعمل عن قرب مع الروس لحل هذه المسألة وأن الأطراف كلهم سيجلسون على الطاولة المستديرة، لكنه جمع الروس والأطراف الأخرى لإدراكه أن الروس كانوا يرغبون بأن يتصوروا ولو بشكل رمزي أنهم مكافؤون للولايات المتحدة. أما الآن فالوضع معكوس، الروس يدركون أن هذا ما يريده الرئيس أوباما، يريد هذه الطاولة المستديرة ولو بصورة رمزية بينما يسيطرون هم على الوضع على الأرض".

النتيجة هي أن الولايات المتحدة سلمت سوريا للروس والإيرانيين، والسؤال "لقد أطعمناهم إياها ولكن هل يستطيعون ابتلاعها؟". وهذا هو الأمر الوحيد الذي يقف بين الوضع الذي آلت إليه الأمور الآن وبين الوجود الدائم للحرس الثوري الإيراني على الجانب السوري للحدود مع إسرائيل، وهي حقيقة أن سوريا صعبة البلع حسب وصف دوران الذي يؤكد أن هذه الحقيقة ليست هامشية ولا ينبغي تجاهلها. سينشغل الإيرانيون وحزب الله والمليشيات الشيعية لسنوات، لكن الوضع في حلب يبدو أنه يسير في صالح الروس، "ولن يطول الأمر قبل أن نسمع عن توجه الروس والإيرانيين إلى الجنوب وقد بدأت هذه التحركات بالفعل وفق بعض التقارير وحينها من سيقفهم؟ هل سيدخل الإسرائيليون في حرب؟ أشك كثيرًا في ذلك، هل ستتحرك الولايات المتحدة عسكريًا؟ لا أعتقد ذلك".

فهم أوباما الخاص أم تحول كبير في السياسة الأمريكية؟

من الممكن أن تكون صعوبة ابتلاع سوريا إيجابية خلال الشهور التسعة القادمة بالنسبة للإدارة الأمريكية، بحيث لا يتمكن الروس والإيرانيون من التحرك جنوبًا قبل مغادرة الرئيس أوباما. والسؤال هنا عن نموذج الطاولة المستديرة في المنطقة، هل هي فكرة تخص أوباما وحده أم أننا نشهد تغييرًا تاريخيًا في سياسة الولايات المتحدة؟ يعرب دوران عن خشيته من أن هذه ليست فكرة شخص واحد، ومن أننا نشهد تغييرًا كبيرًا في السياسة الأمريكية من شأنه أن يستمر لوقت طويل. يعتمد ذلك على الرئيس الجديد للولايات المتحدة، هناك خلافات كبيرة بين هيلاري كلينتون وباراك أوباما في هذه المسألة وخاصة في مسألة تحميل الروس عواقب على سلوكهم، يعتقد دوران أن كلينتون ستكون أكثر ميلًا إلى فهم الطاولة المستديرة مجددًا في المنطقة وتنظيم الأدوار والمهام بين الحلفاء الذين لا يستطيعون تنظيمها بين بعضهم في غياب الولايات المتحدة. إن من الصعب على الأتراك والإسرائيليين أو السعوديين والإسرائيليين مثلًا أن يجتمعوا على هدف واحد في سوريا حسب دوران، وحتى إذا امتلكوا مصلحة مشتركة فهم بحاجة إلى أن تجمعهم الولايات المتحدة وتوزع الأدوار والمهام بينهما وتقدم رؤية مشتركة للمنطقة.

وحتى لو كانت كلينتون أكثر ميلًا إلى تحميل الروس عواقب تحركاتهم، فإن هناك مقاومة لذلك من داخل الحزب الديمقراطي بدليل أنها لم تشر علنًا إلى الخلاف بينها وبين أوباما، ويبنى دوران هذه القراءة على متابعتة لخطابات كلينتون وتواصله مع عدد من مساعديها وأشخاص في حملتها الانتخابية. الأمر الآخر وهو السر الصغير الفاضح للطاولة المستديرة لأوباما، هو أن لها دعمًا كبيرًا من قبل الجمهوريين الذين يدعمون هذا المفهوم، لكنهم لا يدركون في الواقع أو يعترفون بدعمهم له. مرشحوا حزب الشاي مثلًا مثل تيد كروز الذي يقول "سأعمل مع الأسد ضد داعش"، هو يكره إيران بالتأكيد وسيلغي الاتفاق معها لكنها سيعمل مع الأسد، وهناك تناقض هنا فالعمل مع الأسد يؤدي حتمًا إلى دعم إيران، لكن الناخب لا يركز على فهم ذلك فهو يتلقى رسالتين: الأولى وهي رسالة ذكية فحواها أن أمريكا ستكون قوية مرة أخرى وستضرب داعش دون هوادة، والرسالة الأخرى أن الولايات المتحدة ستعمل مع حلفاء يشتركون معها في المصلحة مثل بوتين لذلك لن تكون مضطرة إلى إرسال جنود أمريكيين، وبالتالي سيكون لدينا أمريكا قوية مجانًا!، هذا شعار مشهور جدًا، لكن دوران يرى أنه ليس جيدًا بالنسبة لإسرائيل فهو لا يحمل الإيرانيين والروس أي تكلفة أو عواقب.

ربما يدعم رشحون آخرون تحميل إيران وروسيا تكاليف على تدخلهم وسلوكهم ضد مصالح الولايات المتحدة، لكن هناك قوى في المجتمع الأمريكي تعارض ذلك وترى أن الولايات المتحدة دعمت إسقاط أربع زعماء عرب دون أن تجني أي فائدة، ولا تريد هذه القوى التورط في صراع آخر. وحتى السياسيون الذين يدركون أن إيجاد التغيير المرغوب في الشرق الأوسط يتطلب قوة عسكرية لا يرغبون في إعلان ذلك خوفًا من خسارة الانتخابات. لذلك يرى دوران أنه بغض النظر عن التزام الرئيس الأمريكي الجديد باستعمال الردع العسكري ومعاينة روسيا وإيران، أو عدمه، إلا أنه لن تكون هناك إرادة سياسية كافية لفعل ذلك، وهذا برأيه "يترك الإسرائيليون مكشوفين أمام الحرس الثوري الإيراني والروس على الجانب الآخر من الحدود، مع وجود احتمال ضئيل لانفصال الاثنين".